Makale Türü / Article Type / نوع المقالة: Araştırma Makalesi / Research Article / البحث
Geliş Tarihi / Date Received /تاريخ الاستلام: 05 Mayıs 2022 • Kabul Tarihi / Date Accepted / تاريخ القبول: 18 Mayıs 2022
Atıf / Cite as / الإحالة: Boubes, Enas. "خُطْبَةُ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام فِي أَوَّلِ جُمْعَةٍ فِي المَدِينةِ المنَوَّرة (مِن خُطَبِ الوَعْظِ الدِّينِيِّ) قِراءةٌ تَحلِيليَّة". *Mizânü'l-Hak: İslami İlimler Dergisi* 14 (Haziran 2022), 227-244.

خُطْبَةُ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام فِي أَوَّلِ جُمْعَةٍ فِي المَدِينةِ المنَوَّرة (مِن خُطَبِ الوَعْظِ الدِّينِيِّ) قِراءةٌ تَحلِيليَّة

لمُلَخَّص: الأدب نشاط إنساني وسيلته اللغة، يبدعه إنسان يملك رؤيةً حول الكون والمجتمع، ويستخدم اللغة استخدامًا خاصًّا، وينقسم الأدب إلى شعر ونثر، وينطوي تحت النَّثر فنون كثيرة كالخطابة والرسائل والعهود والوصايا. وفي هذا البحث أدرس نصّ خطبة لرسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام؛ ألقاها على الناس في أول جمعة له في المدينة المنوّرة، وغاية البحث هي الكشف عن جماليات النص مبنى ومعنى وفكرًا وأسلوبًا وعاطفة. وقد قامت الخطبة على موضوع تقوى الله وأسبابه ونتائجه وانعكاساته الإيجابية على الأفراد والمجتمع، وبيّنت سُبل تقوى الله المؤدية إلى خير المرء في الدنيا والآخرة، وقام بناؤها الفكري على مقدمة وعرض وخاتمة، واتسم الأسلوب فيها بالوضوح والمباشرة والاتكاء على أساليب تثبّت الأفكار في نفوس المتلقّين، وانتهى البحث بعد دراسة نص الخطبة بمجموعة من النتائج؛ أهمّها أنَّ رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام سَنَّ للوُعاظِ والخلفاء الراشدين من بعده نهجًا واضحًا لنصوص الخطبة التي ينبغي أن تُوجَّه إلى عموم النّاس، ابتداء من اختيار الموضوع وصلته بالواقع والمجتمع.

الكلمات المفتاحية: الخطابة، الوَعظ الدّيني، خُطَب رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام، أوّل جمعة في المدينة المنورة، البناء المعنوي والفني للخطبة.

Enas BOUBES*

Hz. Peygamber'in (sav) Medîne-i Münevvere'de Verdiği İlk Hutbe: Dinî Öğüt Hutbeleri Bağlamında Bir İnceleme

Öz: Edebiyat, dilin araç olarak kullanıldığı insani etkinliklerden biridir. Varlık ve toplum hakkında belli bir görüş sahibi olan ve dili başkalarından ayrışarak kendine has bir şekilde kullanabilen kişi tarafından üretilir. Edebiyat şiir ve nesir olmak üzere ikiye ayrılır. Nesir de kendi içinde hitabet, mektuplar, anlaşmalar, vasiyetler gibi türlere ayrılır. Bu araştırmada Resulullah'ın (sav) Medîne-i Münevvere'ye geldikten sonra verdiği ilk Cuma hutbesi mercek altına alınacaktır. Araştırmanın amacı, hutbe metninin yapı, anlam, düşünce, üslup ve duygu içeriği bakımından estetik yönlerini açığa çıkarmaktır. Hutbe Allah korkusundan, bu duyguyu elde etmenin yollarından ve Allah korkusunun fert ve toplum üzerindeki olumlu yansımalarından bahseder. Düşünsel yapı giriş, gelişme ve sonuç şeklindedir. Üslup açık ve doğrudan olup alıcıların zihinlerinde düşünceleri sabitleyen ifade yöntemlerine ağırlık verilmiştir. Araştırma, hutbe metninin yapı ve anlam bakımından ayrıntıyla incelenmesinin ardından ulaşılan sonuçların kaydedilmesiyle sonlandırılmıştır. Bu sonuçların en önemlisi Resulullah'ın kendinden sonra gelenlere bir hutbenin konu seçimi ve sosyal hayatla bağının nasıl olması gerektiği noktasında yol göstermesidir.

Anahtar Kelimeler: Hitabet, Dinî Öğüt, Resulullah'ın Hutbeleri, Medîne'de İlk Cuma, Hutbenin Biçimsel, Semantik Yapısı.

Hz. The First Sermon of the Prophet (saas) in Medina: An Analysis in the Context of Religious Advice Sermons

Abstract: Literature is one of the human activities in which language is used as a tool. It is produced by a person who has a certain view about existence and society and can use language in a unique way. In this research, the first Friday sermon given by the Messenger of Allah (saas) after he came to Medina will be examined. The aim of the research is to reveal the aesthetic aspects of the text like structure, meaning, style and emotion. The sermon talks about the fear of Allah. The intellectual structure is in the form of introduction, development and conclusion. The style is clear and direct. The research was concluded with the recording of the results. The most important of these results is that the Messenger of Allah guided those who came after him in choosing the subject of a sermon and how it should be related to social life.

Keywords: Oratory, Religious Advice, Sermons of the Messenger of Allah, First Friday in Medina, Formal and Semantic Structure of the Khutba.

* Dr. Öğr. Üyesi, Enas Boubes, Kâtip Çelebi Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi, Temel İslam Bilimleri Bölümü, Arap Dili ve Belagatı Anabilim Dalı. E-Posta: eboubes@gmail.com - ORCID ID: https://orcid.org/0000-0001-9358-7186.

مُقَدِّمة

يُعدُّ الحديث عن تقوى الله عمودًا أساسيًّا من الأعمدة الفكرية في بناء الخطب والمواعظ الإسلامية، وعليه قامت خطبة رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام في أول جمعة في المدينة المنورة، فتقوى الله ركنٌ مجتمعيّ أصيلٌ في بناء الإنسان والمجتمعات حتَّى ساعة النَّاس هذه، وقد عُني رسول الله بهذا الموضوع لأنّ الدولة الإسلامية كانت في مرحلة البناء والإعداد، والهدف من الخطبة كان تأسيس جيل مؤمن يقف في الصفِّ الأوَّل مِثالًا تحتذيه الأجيال المسلمة الناشئة والقادمة من بعد. وقد جرى الخلفاء الراشدون على هذه السُّنة بعد رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام، وحتى يومنا هذا ما تزال خُطب الجُمَع تُعنى بالحديث عن تقوى الله ونتائجها وتأثيراتها في مجتمعاتنا الإسلامية وروابطنا الإنسانية لأنَّها فكرة أساسية في إصلاح الفرد والمجتمع.

وعلى ذلك عُدّت أفكارُ الخطبة الأولى لرسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام في المدينة المنورة جديدة في مضمونها وفق منظومة الإيمان والمعرفة الإسلامية، وجاءت أفكار خطب الخلفاء الراشدين من بعده مستقاةً منها ومن هديه ρ، إذ شكّلت خطبته وموعظته منهجًا لكل خطباء الوعظ من بعده، لا سيّما في مسألة الدّعاء والإلحاح عليه كونه جزءًا لا يتجزّأ من تقوى الله.

وقد هدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الأفكار والمعاني التي قامت عليها خطبة رسول عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام في أول جمعة في المدينة المنورة، فقسَّمتُها بحسب ترتيبها إلى مقدمة وعرض وخاتمة، وناقشت الأفكار الواردة فيها وغاياتها وأسبابها، ثم عطفت على ذكر اللمحات البيانية والبديعية فيها. وتأتي أهمية الموضوع من أهمية الخطبة المدروسة وصاحبها عليه أفضل الصلاة والسّلام، إذ عُدّت النموذج الأول الذي سَنّ للوُعّاظ والخطباء نَهْجَ خطابة الوعظ الديني، والنموذج الأمثل الذي قدّم لهم تقنياتها. وخلص البحث إلى مجموعة من الاستنتاجات التي أحاطت بنصِّ الخطبة مبنى ومعنى وفكرًا وأسلوبًا وعاطفة.

تمهيد

الأدب والتاريخ خطَّان متلازمان لا ينفصلان، فعند دراسة أدب أي حقبة لا بُدَّ أن نُحيط بتاريخها ونُلمّ به إلمامًا يكفينا مؤونة شرح كثير من المعاني التي تواجهنا وتفسيرها، كما أن معرفة الظروف التاريخية المحيطة بالأدب تساعدنا في فهمه وتحليله. ونصُّ الخطبة المدروسة في هذا البحث يعود إلى عهد صَدر الإسلام؛ الممتدّ من بعثة رسول الله ρ إلى نهاية الخلافة الراشديّة من بعده، إلى عام 41 للهجرة. ومن المعلوم أنَّ الإسلام غيّر كثيرًا من المفاهيم والقيم السابقة، فظهور الإسلام كان حدثًا عظيمًا غيّر معالم الحياة بمختلف جوانبها؛ الدينية والاجتماعية والسياسية. ويُعدّ تأثير القرآن الكريم "أقوى تأثير هزَّ عقول العرب وقلوبهم، وأثّر فيهم أيّما تأثير وهم يسمعونه ويتلونه، ففيه تصوير لعظمة الله وجلاله، وحديث يجلب إليه الألباب عن الجنة والنار واليوم الآخر والحساب"[1]. وتجلّى أثره

[1] ساجد الصالح وآخرون، دراسات في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث (أنقرة: Sonçağ، 2022م)، 79.

وأثر القرآن الكريم في مدى إغناء اللُّغَة العربيَّة بألفاظ جديدة لم تكن معروفة من قبل، مثل: (الجنة، والنار، والقيامة، والكفر والإيمان)، وفي الألفاظ التي تغير مدلولها وانتقلت من سياق لغوي مُعيّن إلى سياق آخر كـ (الصلاة والصيام). وفتح ذلك بابًا واسعًا أمام الشعراء والخطباء وأرباب الكلام فغيّر أنماط التفكير والتصوير والتعبير وأعطاهم نماذج جديدة، فتعاظمت قدراتهم على التفكير في موضوعات أوسع وإعطاء الصورة بطريقة أجمل وابتكار أكبر، وطُوِّر علم البلاغة، فنشأت في ظله أنواع بيانية وبديعية متعددة. وكان للأحاديث النبويّة الشريفة أثر كبير في اللُّغَة والأدب، فقد أغنت خزينة اللّغة العربية وساعدت على انتشارها انتشارًا واسعَ النّطاق.

وفي صدر الإسلام تراجع الشِّعر فترة وجيزة لأنَّ الجميع اندفع نحو القرآن الكريم إعجابًا ودهشةً، سواء مَن دخلوا في دين الإسلام تعبدًا وتلاوةً أو من بقي على شركه وكان يقرأ للاطلاع على بيانه وفصاحته، ولكن الشِّعر استعاد رونقه مجددًا وظهر كثير من الشُّعَرَاء الذين نظموا الشِّعر بما يتماشى مع تعاليم الإسلام.

استقر في أذهان بعض النُّقاد أنَّ الإسلام وقف من الشِّعر موقفًا معاديًا، والمسألة ترجع عندهم إلى فهمهم للآيات الأخيرة من سورة الشُّعَرَاء: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾[2]، وترجع من ناحية ثانية إلى نفي القرآن الكريم الشِّعرَ عن النبي الكريم عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام. لكن هذه الآيات لا تقصد الشُّعَرَاء عامة، بل تقصد أولئك الذين يهاجمون الإسلام والنبي بأشعار مسيئة وفاحشة، ودليل ذلك هو الاستثناء الذي تُختم به الآيات، إذ يُستثنى الشُّعَرَاء المؤمنون الذين يقولون أشعارًا تتواءم مع الدين الإسلامي وتعاليمه وأخلاقه. أمَّا الآيات التي تنفي الشِّعر عن النبي فهي ردٌّ من القرآن الكريم على ما كان يشيعه المشركون من أنَّ محمدًا عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام شاعر، وأنَّ القرآن شعرٌ، وليس كلامًا منزلًا من عند الله، لذا كان من الطبيعي أن يتصدى القرآن لهذا الاتهام. وما يعنينا من هذا الكلام هو تأكيد القرآن الكريم فكرةَ نفي الشعر عن صاحب نص الخطبة المدروسة هاهنا؛ عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وفي حين يُعدّ نقل المعرفة وظيفة ثانية للشعر فإنه الوظيفة الأولى الملقاة على عاتق النَّثر، وهذه المعرفة تصل إلى المتلقين بقالب لغوي جميل، قد تصل بكلام شفوي منطوق، وقد تصل مكتوبة مُدوَّنة. فالنَّثر لا يتقيّد بحدود القافية والوزن، وعلى ذلك فإن حرية المرء في إيصال المعرفة تكون أيسر وأقدر، فالإنسان يستطيع أن يُعبّر بمرونة بعيدًا عن أَسْرِ قافية ملزِمة أو وزن موجب، ويقال إنّ النّثر "لا يظهر عند أمة من الأمم إلا متى بلغت تلك الأمة درجة عالية من المدنية والحضارة، بخلاف الشعر لغة العاطفة والخيال"[3]. وعن أسبقيّة النّثر وأهمّيته يقول أبو حيان التوحيدي: "النثر أصل

[2] سورة الشعراء: 224ـ 227.

[3] حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (بيروت: دار الجيل، 1986م)، 107.

الكلام والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع"[4]، ويرى أن لغة الشعر هي لغة العواطف والوجدان، أما لغة النثر فهي لغة العقل والحكمة. أمّا ما يجعل النثر فَنًّا أدبيًا فهو القالب اللغوي الباعث على الإعجاب والدهشة واللذّة لدى القُراء أو السَّامعين، وعن قيمة لغة النثر يقول طه حسين: إنها "لا تظهر إلا حينما يكون لها حظ خاص من جمال أو لذة فنية خاصة"[5]. وفي الجانب الشفهي يندرج فنُّ الخطابة، أمّا الكتابي فنجده في الوصايا والرسائل والعهود. وفي تعريف الخطابة جاء في أساس البلاغة: "خاطَبه أحسن خِطاب وهو المواجهة بالكلام، وخَطب الخطيب خُطبة حسنة"[6]. وجاء في القاموس المحيط: "وخَطَبَ الخاطبُ على المِنْبَرِ خَطابَةً، بالفتح، وخُطْبَةً، بالضم، وذلك الكلامُ: خُطْبَةٌ أيضاً، أو هي الكلامُ المَنْثُورُ المُسَجَّعُ ونحوهُ"[7].

عُرفت الخطابة منذ العصر الجاهلي، ونالت مكانة مرموقة منذ العصر الجاهلي، ويُعد قس بن ساعدة أشهر خطباء العرب، وكان الخطباء "يقنعون ويُحاجّون معتمدين في ذلك خلب أسماع السامعين"[8]، حتى نازع الخطيب آنذاك الشاعر في مكانته وأهميته، لذا يمكننا القول إن فنَّ الخطابة ارتقى شيئًا فشيئًا في صدر الإسلام حتَّى أرسى دعائمه وتعمّقت بفضله مكانة الخطيب، فالسبيل إلى معرفة الدين الجديد؛ دين الإسلام، آنذاك والإيمان به يأتي من طريقين: طريق قلبي يعني إيمان بالسريرة، وطريق عقلي يعني الفهم والإدراك، وقد كانت الخطابة وسيلة الدعوة الأولى إلى الإسلام، فحين انتقلت الدعوة من السر إلى الجهر جاء في القرآن الكريم قوله تعالى مخاطبًا سيدنا محمدًا عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[9]، وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[10]. فكانت الخطابة هي الوسيلة التي نقلت الدعوة من مصدر الوحي إلى الآخرين، استنادًا على آليَّتي التأثير والإقناع، فهما المحوران الأساسيّان اللذان تدور حولهما الخطابة، فقد قال جلّ في عُلاه في محكم التنزيل: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[11]. وبذا نالت الخطابة في صدر الإسلام أهمية عظيمة وعُزِّزت مكانتها لأنها كانت وسيلة إيصال الدعوة، وبعد وفاة النبي ρ حين ارتدّت بعض القبائل في الجزيرة العربية عن الإسلام، كانت وسيلة ردِّ تلك القبائل إلى جادّة الصواب بداية وقبل السيف هي الخطابة.

---

4 أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة (بيروت: المكتبة العصرية، 1424هـ)، 250.

5 طه حسين، من حديث الشعر والنثر (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م)، 25.

6 أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ= 1998م)، 1: 255.

7 الفيروز آبادي، القاموس المحيط (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ= 2005م)، مادة [خطب]،81.

8 حسين، من حديث الشعر والنثر، 27.

9 سورة الحجر:94.

10 سورة الشعراء:214.

11 سورة النساء:63.

أثر الإسلام والقرآن الكريم في فنِّ الخطابة

عندما جاء الإسلام بالقرآن وكلماته العذبة السلسة القريبة من إدراك الإنسان أحدث تغيُّرًا في المعجم اللغوي، إذ نَأت اللُّغَة عن منحى الصعوبة والوعورة نحو الميل إلى الألفاظ اللينة والسهلة والقريبة من تداول النَّاس، فطالما أنَّ الدين للنَّاس جميعًا يجب أن تكون لغته في متناولهم، وعليه فإن من أثر الإسلام في اللغة أنه قلَّل من الألفاظ الغريبة وحدَّ من استعمال الألفاظ الغريبة والحُوشيّة، وجعلها تميل نحو الألفاظ السهلة التي تدرك من قِبَل السواد الأعظم من النَّاس. ولم يقتصر تأثير الإسلام على الألفاظ، بل تعدّاها إلى الأساليب أيضًا، فنَحَت اللغةُ نحو الأساليب العذبة في بناء الجمل اقتداءً بما جاء في السور المكّيّة- خاصَّة- التي تقوم على الآيات القصيرة والجُمل المتوازنة، وقد رأينا هذه الآثار بوضوح في نصوص الخطابة التي قيلت في عهد صدر الإسلام.

الخطابة وموضوعاتها في صدر الإسلام

قامت الخطابة في صدر الإسلام على أربعة موضوعات، ويقال خمسة موضوعات فصلًا بين خطب التشريع والخطب السياسية[12]؛ وهي:

- الوعظ الديني: وهو أكبر الموضوعات التي شغلت الناس في عصر صدر الإسلام في الخطابة.
- خطابة الوفود: ويندرج تحتها خطابة الوفود على الرسول الكريم، وخطابة الوفود على الخلفاء.
- خطابة الحثّ على الجهاد: وهي خطابة تهدف إلى استثارة حماسة الجند وحثّهم على الجهاد.
- الخطابة السياسة: وفيها بيان منهج الحكم, وتندرج تحتها خطب التشريع وشرح أحكام الدين. فالنبي ρ في خطبة حجَّة الوداع وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده رسموا في خطبهم صورةً للإجراءات التي ستقوم عليها السياسة وكيف سيكون الحكم وما الغايات التي يستهدفها.

قراءة الخُطبِ قراءة تحليلية

لا بدّ قبل استقراء أيِّ نصٍّ أدبيّ من الإحاطة بمُبدعه وظروفه التي أنشأ نَصّه فيها، فهذا هو المفتاح الأول للدخول إلى عالم النص وفهمه وتحليله، لذا يجب أن نعرف البيئة التي نشأ فيها والحاضن الثقافي الذي أحاط به، وأن نطّلع على ثقافة العصر الذي أبدع فيه إنتاجه، فالمبدع ابن مجتمعه، ولا بد من معرفة الثقافة الشائعة والأخلاق القائمة آنذاك، لأن معرفة هذه القضايا تُبيِّن إلى أيِّ حدّ تمكن المبدع من أن يتمرّد على هذا الواقع أو يمائله أو ينتقده، وهذه المعرفة تُعين القارئ على فهم بعض جوانب الغموض- إن وُجِد- في رؤية المبدع حول نفسه والكون والمجتمع.

[12] ينظر: شوقي ضيف، الفنُّ ومذاهبه في النَّثرِ العربي (مصر: دار المعارف، د.ت)، 52.

الأدب فعالية جماليّة تترك في نفس المتلقي الإدهاشَ والإعجاب، ويحمل في طياته إنهاضًا للشعور والذات الإنسانية نحو الأرقى والأفضل، لذا لا بد من قراءة واعية للنص الأدبي للكشف عن أسراره وخباياه، وقراءة أفكاره وفهم معانيه، فالنص أيًّا كان ومهما قصر أو طال يقوم على ثلاثة أركان رئيسة؛ المقدمة، والمضمون، والخاتمة. وفي القراءة الواعية نحدد هذه الأقسام ونُوَصّفها ونعاينها، فالمقدمة تعد تمهيدًا للموضوع يكشف مدى إحسان المبدع لسبك المضمون والوصول إلى الغاية المَرجوّة منه.

فكل نصٍّ يقوم على مجموعة من الأفكار والمعاني، والأفكار أكبر من المعاني، إذ يتكئ الكاتب للدخول إلى سياق الفكر على المعاني، وفي دراسة النص ننظر إلى جِدّة الأفكار أو قِدَمها، وإلى وضوحها أو اختلاطها، ويتجلى ذلك في قراءة نص نثريٍّ من نصوص الخطابة في صدر الإسلام بتقسيم المعاني إلى موروثة أو جديدة جاء بها الإسلام. وهل هي إيجابية مطابقة لمقتضى الشرع الإسلامي آنذاك أم أنها سلبية منافية له؟ وهل أحسن المبدع في اختياره الموضوع الرئيس وفقًا للظرف الراهن ووُفّق في اختيار المعاني الناسجة للأفكار أم أنه أساء الاختيار؟ والخط الفاصل بين الإيجابية والسلبية في قراءتنا للنصوص أن هذه الأفكار التي أوَّلَها الكاتب تؤدي إلى إنهاض في حياة الفرد وحياة المجتمع. وهل هذه الأفكار صادقة أم أنها كاذبة مخاتلة؟ هل هي عفوية أم أنها عميقة مُعدّة من قبل؟ والواقع الحياتي هو الذي يُبيِّن لنا واقع الأفكار والمعاني الصادقة من الكاذبة. إنّ الأفكار التي تتصف بالعمق هي تلك الأفكار التي تُستمدّ من العقيدة الدينية أو النظريات الفلسفية، وكلما ابتعدت الأفكار عن هذين المصدرين أصبحت ضحلةً مسطّحة. ثم ننتقل بعد ذلك إلى الجانب الفني، فيُنظَر إلى النثر "ببعض المقاييس المستقاة من خصائص الحياكة الشعرية"[13]، إذ تقوم دراسة الأسلوب على الألفاظ والتراكيب والتعابير؛ فالألفاظ هي البنية الصوتية للنص، وإما أن تكون سلسة أو كزّة، وإما سهلة أو صعبة حُوشية، وفي دراسة التراكيب يُنظر إلى البناء الصرفي (الاشتقاق)، وإلى اعتماد المبدع على صيغ محددة دون أخرى، إن غلبت صيغة الأمر –مثلًا– على الأفعال كان النص موجهًا من سلطة عُليا إلى سلطة دُنيا، وإن غاب الفاعل عن الجمل في النص كان ذلك إمّا حُبًّا للفاعل أو خوفًا منه أو عليه، وكذلك الأمر في الصفة المشبهة واسم الفاعل وغيرها، فكل تركيب لغوي له معنى، وعلى قارئ النص ودارسه أن يستكشف جوانبه ويستنطق الحياة فيه. ناهيك من جمال التعابير المتمثلة في فنون البلاغة وصُورِ البيان وألوان البديع وما تؤديه من وظائف جمالية وإيحائية في النصوص الأدبية.

حين نُعاين نصًّا أدبيًّا في عهد صدر الإسلام فنحن أمام بناءٍ فكريٍّ ومنظومةٍ إيمانيّةٍ ومعرفيّة جديدة، وقد حول بعض المبدعين انطلاقًا من حرصهم على عدم ذهاب أيِّ قدرٍ من انتباه المتلقين أن يُقدِّموا صورًا متواضعةً، بعضها مكرور وبعضها تقليديّ، ولم يكن ذلك بسبب ضعفٍ في قدرة المبدع ولا فصاحتهِ ولا إبداعه، وإنما رغبة في جلاء المعاني والإفصاح عنها بما يخدم المنظومة المعرفيَّة، ففي تقويم أيّ صورة بلاغية لا بد من الإجابة عن السؤالين الآتيين: هل خدمت الصورة الأفكار والمعاني والأداء اللغوي

[13] عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون (الكويت: دار سعاد الصباح، 1993م)، 138.

والأسلوبي؟ وهل أثارت الإدهاش والإعجاب في نفس المتلقين أم أنها أخفقت في ذلك؟

خُطْبَةُ النَّبيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام[14]
في أَوَّلِ جُمعةٍ في المَدِينةِ المُنَوَّرةِ
(مِن خُطَبِ الوَعظِ الدِّينِيّ)

«الحمد للَّه، أحمدُه وأستعينه وأستغفره، وأستهديه وأومِن به ولا أكفره وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلاّ اللَّه وحده لا شريكَ له، وأشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسوله، أرسله بالهُدى والنور[15] والموعظة[16] على فترة[17] من الرّسل، وقلّة من العلم، وضلالة[18] من الناس، وانقطاع من الزمان[19]، ودنوٍّ من الساعة، وقربٍ من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رَشدَ[20]، ومن يعصهما فقد غوى[21] وفرّط وضلّ[22] ضلالًا بعيدًا.

أوصيكم بتقوى الله[23] فهو خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرًا، إنَّ تقوى الله لمن عمل بها على وجل[24] ومخافة من ربّه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلاّ وجه الله يكن له ذكرًا في عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذّركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك، فإنه يقول عز وجل: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (29) سورة ق. فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله وفي السر والعلانية، فإنه من يتق الله يُكفّر[25] عنه سيئاته، ويعظّم له أجره، ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، وإن تقوى الله يوقي مقته[26] ويوقي عقوبته ويوقي

---

[14] أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر: دار المعارف، د. ت)، 2: 395ـ 396. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (بيروت: المكتبة العلمية، د. ت)، 1: 148ـ 149.

[15] النور: الضوء المنتشر المعين على الإبصار.

[16] الموعظة: اسم للوعظ؛ وهو الزجر المقترن بالتخويف، والتذكير بالخير فيما يرقّ له القلب.

[17] فترة: انقطاع.

[18] ضلالة: عدول عن الطريق المستقيم.

[19] الانقطاع من الزمان: توقُّف الزمن مجازيًا لأنه لا علم ولا معرفة إلاّ بوجود الله مع إدراك حكمه.

[20] رشد: خالف الغيّ، ويستعمل مرادفًا للهداية.

[21] غوي: جَهِلَ من اعتقاد فاسد.

[22] ضل: عدل عن الطريق المستقيم.

[23] التقوى: الخوف، وحفظ النفس عما يؤثم بترك المحظور.

[24] الوجل: الخوف.

[25] يكفّر: يغطّي ويستر.

[26] مقته: كرهه.

سخطه[27]، وإن تقوى الله يغيّر الوجوه ويرضي الرب ويرفع الدرجة.

خذوا بحظكم ولا تفرّطوا في جنب الله قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم[28] وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بيّنةٍ[29] ويحيا من حيّ عن بيّنة.

فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس؛ ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، يملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلاّ بالله العظيم».

* * * *

قراءة الخطبة قراءة تحليلية:

تفضّل رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام بهذه الخطبة في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عوف رضي الله عنهم، وفي أول خطوة نحو تحليل الخطبة لا بد من **الإحاطة بالمُتحدِّث**؛ والمتحدِّث هنا غنيٌّ عن التعريف لأنَّه النبي القُرشيّ الفصيح الذي أُوتي جوامع الكلم، والذي أُوحي إليه القرآن الكريم بجلال بيانه، فهو أقدر الناس على تلمُّس جوانب الإبداع والفصاحة والبيان. أمّا **البيئة التي أُبدع فيها النَّص؛** فهي جمهورٌ من المسلمين في أوَّل جمعة صلاّها رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام في المدينة المنوَّرة بعد الهجرة، وأول ما يلفت الانتباه ها هنا هو أن هذه الخطبة قيلت في أجواءٍ من الحريَّة وفي حيِّز جغرافي بعيد عن أذى قريش، ممّا يعني أنّ القوة المعادية المضادة لم يعد لها تأثيرٌ للحدَّ من طول الفكرة ومغزاها، فالنَّص أُبدع في أجواء من الحريَّة، والجمهور متفاعل مع النصِّ وصاحبه. وبالانتقال إلى **موضوع الخطبة الرئيس** قد يتبادر إلى الذهن حديث عن أركان الإسلام أو أركان الإيمان، لكنّ رسول الله ابتعد عن هاتين النقطتين وعن القضايا المتعلقة بمنظومة الإيمان؛ لأنّه في نقطة ترسيخ أوَّليّة لمجتمع جديد، فهذا الموضوع السياسي وبدون أدنى شك ـ وما ينطق عن الهوى إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحى ـ اختيارٌ في مكانه؛ لأنَّ الإنسان عندما يبني علاقة قائمة على التقوى بينه وبين الذات الإلهيّة يكون رائدًا في كلِّ تصرُّف من تصرفاته، فيصبح الحديث عن الإيمان وأركان الإسلام موضوعًا مقطوف الثّمار بالضرورة لأنَّ التقوى تجعل كل فرد يراقب الله سبحانه وتعالى في كل ما يفعله.

---

27 سخطه: غضبه.

28 اجتباكم: اختاركم.

29 البيّنة: الدلالة الواضحة.

أقسام نص الخطبة

يُقسم النَّص إلى ثلاثة أقسام:

أـ المقدمة: تبدأ من قوله ρ: (الحمد لله...) حتَّى قوله: (... وضلَّ ضلالًا بعيدًا).

بـ المضمون: يبدأ من قوله ρ: (وأوصيكم بتقوى الله...) حتَّى قوله: (... يملك من النَّاس ولا يملكون منه).

جـ الخاتمة: هي العبارة الأخيرة فحسب، التي قال فيها عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (والله أكبر ولا قوة إلاّ بالله العظيم).

الهدف من هذا التقسيم هو الإمساك بالأفكار التي دارت حولها الخطبة، وللدلالة على تمتّع الخطبة بوحدةٍ موضوعية متماسكة.

أفكار الخُطبة

نبدأ **بالمقدمة**؛ تقوم المقدمة على ثلاث أفكار:

1- حمد لله سبحانه وتعالى وما يستتبع هذا الحمد من هداية.

2- مختصر الإسلام والإيمان (المُتَمثِّلِ بالشهادتين).

3- وصفٌ للحقبة الزمنية التي سادت قُبيل الإسلام.

يتبيّن لنا أن هذ الأفكار والمعاني إذا ما قيست بأفكار الخطب في العصر الجاهلي فإنها تُعدّ جديدة بالمطلق، ومُستمدة بدون أدنى شك من الدين الإسلامي ومنظومة الإيمان والمعرفة الإسلامية الصادرة عن القرآن الكريم، والهَدْيِ النّبويّ. وهي معان إيجابية اتّكاء على كونها منسجمة مع سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فمنطق سعادة الإنسان متحصّل عند توفير أقصى درجات الاطمئنان والطمأنينة والأمن، وهذا ما انطوت عليه مُجمل المعاني في خطبته عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام. وبعيدًا عن التّزمّت أو التّعصّب الدّيني يمكننا أن ننظر إلى ما كان يعتورُ المجتمع الجاهلي من تشتّت فكري، وخرافات وتُرَّهات وتصورات وأساطير حول الذات الإلهية، ناهيك من الضياع الذي كان يسيطر على عقول كثيرٍ من النَّاس وعلى المجموع العام من البَشَرْ؛ وعلى هذا عندما نرى تطلُّعًا وصبوةً وخضوعًا إلى إله واحد، إلى وحدانية ربانية، وخضوعًا إلى ما يسرُّ الإنسان في حياته الدنيا وحياته الآخرة، لا بدّ من الاعتراف أن هذه المعاني إيجابية استطاعت أن تُكرِّس سعادة الإنسان وتسعى من أجل تقدُّمه وبناء حياة جديدة كريمة له.

في سياق الحديث عن الأفكار والمعاني لدينا حَدٌّ ثالث لمعرفة مدى دقّتها وتعبيرها بجلاء عمّا يصبو إليه النَّاس، والجواب حقيقة إشكاليٌّ بعض الشيء إذا ما حاولنا رصده بموضوعية؛ فنحن أمام مجتمع متحوِّل، قسم من هذا المجتمع ما يزال على عاداته وتقاليده التي ورثها من أجداده، فكيف

يمكننا التحدث عن مدى صدق هذه المعاني ومدى عدم توافقها مع الإنسان في ذلك الظرف الراهن، فهناك كثير من النَّاس ما زالوا على شركهم، فمن الطبيعي والحال هذه أن نرى أنَّ هذه المعاني في ذلك الإطار (الزمن) لم تكن إيجابية، ولم ير النَّاس أنَّها تصبُّ في صالحهم.

إذا ما نظرنا إلى مسألة الإيجابية والسلبية في هذه المعاني ننظر إليها على نحو مجرَّد كما أشرت سابقًا، لكن إذا حوكمت هذه المعاني في إيجابيتها وسلبيتها في إطار ما كان سائدًا في ذلك الزمن من انقسام النَّاس بين شرك ـ وهم كثرة ـ ومؤمنين ـ وهم قلّة ـ، فإن تقييم العدد الأكبر من الجماعة لهذه المعاني آنذاك كان سلبيًا، وغير مألوف وخارج عن نطاق واقع الحياة الاجتماعية وما كانوا يتصوَّرونه من إيجابيات في منطلقاتها ومراميها.

عَرْضُ الخطبة ومضمونها

مجموع الأفكار والمعاني التي وردت في المضمون تنطوي تحت عنوان واحد؛ هو (تقوى الله)، جاء موضَّحًا عبر سلسلة من الأمثلة التي بيّن فيها عواقب من لم يتّقِّ الله، ومغانم من يتّقيه، وجاء بآيات مجتزَأة أو كاملة من القرآن الكريم لكي يُسدّد الفكرة ويوضّحها في أذهان المتلقين. والسؤال الآن: هل كانت المعاني الواردة في عرض الخطبة إيجابية أم سلبية؟ لا بد أن نجيب بموضوعية بعيدًا عن التّحيّز، ولا بدّ من تسويغ ما نذهب إليه. نعم المعاني التي عرضت حديث التقوى في مضمون الخطبة كانت إيجابية؛ فتقوى الله التي وصّفها النبي ρ جاءت بحُلّة ردِّ شيء من الجميل إلى الذات الإلهية التي خلقت هذا الكون، فحريٌّ بالمرء أن يتّقي صانع هذا الكون وبارئه، وهذا مقياس إنسانيٌّ بحت؛ أن يُردّ الجميل بمثلِه على أقلِّ تقدير، فما بالنا حين يكون الجميل من رب هذا الكون وخالقه! إنّ قيمة الإيجاب في تقوى الله لا تُسجَّل للحظتها الراهنة، بل تُسجَّل أبدية لأنَّها مرتبطة بخالق الكون ومسيِّره في إطار معرفي إسلامي يتقاطع مع ما جاءت به الديانات السماوية السابقة.

إن المعاني التي جاءت في هذا المضمون تسعى إلى خير الإنسان لذا لا بدّ أن تُصنَّف تحت باب الإيجابيات. أمّا في مسألة قِدَمها وجِدَّتها لا نستطيع أن نقول إلاّ أنَّها جديدة، ونقول كما قلنا في المقدمة: إنَّها استقتْ مفرداتها ومضمونها من وحي الله سبحانه وتعالى إلى نبيِّه في القرآن الكريم، مما يعني أنها جاءت في إطار المنظومة المعرفية الإسلامية.

أما عن مدى حسن اختيار المعاني فلا بد ها هنا أن نُعاين السياق الثقافي والمجتمعي كاملًا؛ فقد أتى رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام بموضوع يهدف إلى تربية النفوس المؤمنة التي وضع لها خطًّا وطريقًا واضحًا لتنهض بالحياة في المجتمع العربي الإسلامي، هذه النهضة لها تبعات ثقيلة فهي في صدام دائم مع الشرك بسبب نشر رسالة الإسلام في أصقاع الجزيرة العربيَّة، وطريقها وعرة صعبة لا تُدرك بدون الاعتماد على الذات الإلهية التي فرضت هذا الانتشار وكتبت له النجاح.

إنَّ موضوع (تقوى الله) أساس في تربية الإنسان المؤمن الذي تنتظره مهمات شاقة وصعبة في هذه

الحياة، فالإنسان عندما يتّقي ربّه في السِّرّ والعلانية، ويضع الله سبحانه وتعالى أمام عينيه في كل تصرف يتصرفه، فإن سلوكه في الدعوة إلى الجهاد، وفي الصدق والزكاة والصدقة، وفي تتبع العبادات؛ يصبح أمرًا تلقائيًا، لأنَّه ينظر دائمًا إلى خالق الكون الذي خلقه فيتّسم بالتواضع ويُسلّم بقدرة الله وقدره. إنَّ اختيار موضوع (تقوى الله) في أول جمعة في المدينة المنورة ليُلقى على مسامع المسلمين من مهاجرين وأنصار كان مُسدَّدًا، لأنَّ تقوى الله تُربِّي الإنسان وتُشجِّعه وتجعله مخلصًا مطواعًا في تنفيذ المهمات التي تُطلب منه من أجل بناء الدولة العربيَّة الإسلامية الفتية.

وقد جاءت **خاتمة الخطبة** موجزة وتُعدّ قَفلة مناسبة لوصل ما انتهت إليه الموعظة بما تقدَّم من كلام.

البناء الفني للخطبة

يُقال: إنَّ أي نص أدبي في توازن مدى الحياة؛ ويشير ذلك إلى التوازن القائم بين المبنى والمعنى، فأي خلل بينهما يسقط قيمة النَّص، وفي جانب المبنى يتضافر الأداء اللغوي والفني مع الخيال لتكتمل صورة النص ويتحقق توازنه الأدبي. وفي هذه الخطبة، سواء في مقدمتها ومضمونها وختامها، نجد أنها تكاد تخلو من الخيال والصور، مختلفة بذلك عما كنا قد عهدناها في خطابة العصر الجاهلي، فهل يعني ذلك أن قيمتها اختلَّت؟

للإجابة عن سؤال كهذا لا بد أن نعي أنَّ أي نص يجب أن يحقق هدفًا وغاية، فالنبي ρ اختار الحديث عن تقوى الله نظرًا لأهمية هذا الموضوع وانسجامه مع المرحلة الراهنة للمسلمين آنذاك، فهو موضوع يخدم الغاية المرجوة منه؛ وهي التعليم والحث. ومن جهة أخرى نلحظ عامة أن كثرة الصور الفنية في أي نص فني تدفع عقل المتلقي إلى تفكيك الصور والتمتع بتذوقها، فيفقد المتلقي شيئًا من الانتباه اللازم لإدراك المعنى المراد، ومَن يريد أن يُعلّم ويلفت انتباه المتلقين إلى المعاني التي يوردها ويحرص على ألا يغيب منها شيء عن أذهانهم؛ يُخفف من استعمال الصور الفنية أو لا يلجأ إليها مطلقًا، لكنه يعمد إلى تعويضها بأنواع بلاغية أخرى كالاتكاء على علم البديع وتكثيف حضوره بما فيه من ترادف وازدواج وجناس وطباق بنوعيه السلبي و الإيجابي إلى جانب فن المقابلة، وهذا ما يفسر كثرة المترادفات في نص الخطبة كقوله (ومن يعصهما فقد غوى وفرَّط وضلّ) ثلاث مفردات في عبارة واحدة. أضف إلى ذلك أنَّ النبي ρ عوَّض عن غياب الصورة أيضًا بفن مستحدث وقتذاك، كان ما يزال نديًّا طريًّا يلامس النفوس؛ هو الاقتباس من القرآن الكريم لتأكيد المعاني وتثبيتها في نفوس المتلقين.

لَحظنا في نص هذه الخطبة تطوُّرًا مهمًّا في خطابة عهد صدر الإسلام، إذ اعتمدت على وحدة الموضوع في أقسامها كلها، ولحظنا ترجيح استخدام أوجه البديع المعنوية، ناهيك من جِدّة المعاني وطرافتها، والاتجاه نحو مخاطبة العقل بعيدًا عن الشحنات العاطفية والجرعات الوجدانية.

الأداء اللغوي والأسلوب الفني في المقدمة

نبدأ هاهنا بتفحّص العبارات التي ابتُدئَت بها الخطبة، إذ افتتح النبي ρ بقوله: (الحمد لله)، وهي كلمة في صياغتها من الناحية الصرفية تُصنَّف تحت باب المصدر، وقد انقسم اللغويون العرب في مسألة مكانة المصدر؛ إن كان هو أصل كل المشتقات، أم أنَّ الفعل (الحَدَث) هو الأخصّ، وإذا حاولنا أن نضع وجهتي النظر في كفَّتي ميزان فإنَّنا نجد أنَّ الغلبة في تحقيق الرأي الأوَّل كانت أكثر اتساعًا في صفوف اللغويين والنحويين العرب[30]، وإذا كان المصدر أصل كلام العرب وابتدأ النبي ρ بكلمة (الحمد) وهي الثناء على الله سبحانه وتعالى بالمصدر، فالنبي الكريم جعل الثناء بقمّة ما في اللُّغَة من مشتقات، وعليه فإن هذه البداية كانت في صياغتها واشتقاقاتها وصرفها موفَّقةً إلى أبعد حد؛ لأنَّ المصدر كما يقول معظم اللغويين والنحويين أساس كلام العرب. ولم يُعلِّق النبي ρ الكلمة عند حدود المصدر (الحمد لله)، وإنَّما أضاف إليها فعلًا مضارعًا، فالماضي له زمن أمَّا المضارع فيحمل زمنين في آنٍ واحد؛ حاضر ومستقبل ـ ولعلّنا لا نجانب الصّواب إن سمّيناه الحاضر المستمرّ ـ، فأتبع المصدر بفعل مضارع وعطف على هذا الفعل المضارع سلسلة من الأفعال المضارعة.

فكأنّنا بالهدي النبوي حين يقول: "إنَّ الحمد لله أحمده وأستعينه وأستهديه" مستخدمًا الأفعال المضارعة، يريد استمرار الفعل بالحمد والاستعانة بدءًا من الزمن الحاضر واستمرارًا به إلى المستقبل، فهذه المنظومة المعرفية القائمة على حمد الله وسلسلة الأفعال المضارعة هي بداية عصر جديد في فن الخطابة، وشكلٍ جديد في الأسلوب وفق الرؤية الإسلامية الحديثة العهد، حتى إن القلقشندي قال في معرض حديثه عن الخطب والترسل: "كلاهما شريف الموضوع حسن التعلق، إذ الخطب كلام مبني على حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده... والأمر بالصلاح والإصلاح"[31]، مما يعني أن نهج رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام رسخ في بناء خطب الوعظ الديني رسوخًا لا حياد عنه.

أمّا قولُه: "أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله" فيُعدُّ استكمالًا بعد أن قدَّم الذات الإلهية وما استوجبت من شُكر وثناء، فهذا الأداء في الفعل المضارع "أشهد" الذي جاء في مقدمة الفكرة الثانية هو نتيجة لما سبق، لَكِنَّهُ عندما انتقل إلى الفكرة الثالثة (فكرة التوصيف) نرى أنَّ الأسلوب يموج وينتقل ليلائم المعنى ويخدمه، إذ قال: "أرسله بالهدى والنور والموعظة" فجاء بفعل مضارع متعدٍّ إلى مفاعيله بحرف الجر بغية إضافة كشف آخر للرسالة السماوية المتمثلة بكلمة التوحيد "لا إله إلاّ الله محمد رسول الله"، والمتضمّنة لمعاني الهداية والنور والموعظة؛ فالنور استبصار وبصر، والموعظة إرشاد لما يمكن أن يفيد، والهدى دعوة إلى هداية النَّاس إلى الحق بعيدًا عن الأباطيل.

ثم ينتقل إلى معنى آخر ويقدّم لنا مجموعة من العبارات المتوازنة والتي تبدو كأنَّها تضرب على وترٍ

---

[30] يُنظَرُ: ابنُ هِشام (761هـ)، أَوضَحُ المَسالِكِ إلى أَلفيَّةِ ابنِ مالك، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي (سوريا: دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت)، 2: 183.

[31] أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1922م)، 1: 89.

موسيقي واحد، وذلك بقوله:

"... والموعظة على فترة من الرسل، وقلّة من العلم، وضلالة من النَّاس، وانقطاع من الزمان، وقرب من الأجل"، إذ يصحب هذا الانتقال الفكري من معنى إلى معنى انتقالٌ بالكلام من أسلوب إلى أسلوب.

إنَّ الأداء اللغوي في هذه المقدمة اقتضى أن يواكب الأداء والأسلوب اللغوي المعاني التي أرادتها الموعظة، فعندما افتُتحت بالحمد لله وهو الشيء المستوجب لأنَّ الذات الإلهية كما جاءت في وحي الله (هو الخالق، هو المبدع، هو الذي أرسل، هو الذي خلق الإنسان، هو الذي وفَّر الكينونة على الكون) استوجب أن يبدأ بالمصدر وهو أصل كلام العرب، ثُمَّ أتبعه بسلسلة من الأفعال المضارعة لأنَّ بداية هذه الرسالة من الآن وإلى المستقبل غير المنظور. وعندما جاء بالحصر لكي يتحدَّث عن الشهادة جاء التوصيف أيضًا بثلاث كلمات متتالية (الهدى والنور والموعظة) وصّفه بثلاثة أوصاف لاءَمت وتواءَمت وتناغمت مع معنى الشهادة القائم على الحصر، فلمّا جاء التوصيف في مرحلة الرسالة لجأ إلى توازن العبارة. لذا يمكن أن نقول إنَّ هذه المقدمة استطاعت أن تُمازج وتوافق وتخلق تناغمًا بين المعاني والأفكار واختارت من الأساليب ما هو أقدر على التعبير عنها. ثُمَّ ختم المقدمة ببناء شرطي بعد أن بيَّن للناس ووضع الأمور بين يديهم، إذ كان لا بُدَّ من خُلاصة فيما يقع على النَّاس في حال الأخذ بهذه الرسالة وفي حال رفضها، فجاءت الموعظة بأبلغ أسلوب يمكن أن يحملها من أساليب العربية، فجاءت قَفلة المقدمة بقوله: "من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرَّط وضلّ ضلالًا بعيدًا".

وإذا ما نظرنا إلى التراكيب وطول العبارة وقصرها، فإنَّنا نرى أنَّ بعض العبارات كانت قصيرة جدًا "الحمد لله أحمده"، فكلمة (أحمده) تشمل الفعل والفاعل، فصارت الكلمة الواحدة تحمل معنى جملة كاملة في نظام التراكيب العربيَّة، فالنَّص يمكن أن يكون كلمة واحدة، ويمكن أن يكون أيضًا جملة واحدة، ويمكن أن يكون امتدادًا من جمل كثيرة[32]. لَكِنَّهُ عندما انتقل إلى الفكرة الثانية المتمثلة بالشهادة "وأشهد أن لا إله إلاّ الله..." رأينا أنَّ العبارة بدأت تطول، وفي الفكرة الثالثة نرى أنَّ العبارة صارت أطول. وعليه يمكن أن نُسجِّل هنا أنَّ التراكيب التي جاءت بها هذه المقدمة بدأت قصيرة مكثّفة وانتهت طويلة؛ لأنَّ الأسلوب الشرطي يقوم على ثلاثة أجزاء.

قد يتساءل سائل: هل كانت كل هذه التفصيلات حاضرة في ذهن النبي ρ عندما قال هذه المقدمة؟

وحقيقة الأمر أننا حين نقرأ ونحلل النصوص الأدبية فإننا نُعنى بالكشف عن جمالياتها وإظهار ما ورائها انعكاسًا وجمالًا على الواقع والمتلقين، وكثير من هذه الجماليات تأتي عفو الخاطر بدون تفكير وتخطيط ومسبق، وفي هذه النقطة نستشعر لذة الجمال الأدبي في أي نص أو خطاب. على أنّه من الضرورة بمكان الإشارة هنا إلى أنّ هذا الكلام يُقال في حقّ غير النبيّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام، أمّا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام فهو نبي مرسل وما يقوله بناء على المرجعية الإسلاميّة

[32] محمود قدوم، نحو النص ذي الجملة الواحدة (الرياض: مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015م)، 33.

وحيٌ من عند الله تعالى، فهو لا يقول كلامًا عفو الخاطر، وذلك تصديقًا لقوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)﴾[33].

الأداء اللغوي والأسلوب الفني في عَرضِ الخطبة ومضمونها

في قوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (وأوصيكم) توجُّه للمجموع، ابتدأ بفعل مضارع ثُمَّ أتبعه بقوله: "أوصيكم بتقوى الله فاحذروا ما حذَّركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنَّ تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربّه عَون صدقٍ على ما تبغون من أمر الآخرة...".

لدينا في المضمون ثلاثة مقاطع:

المقطع الأوَّل: يبدأ بـ (وأوصيكم بتقوى الله...).

المقطع الثاني: يبدأ بـ (فاتقوا الله...).

المقطع الثالث: يبدأ بـ (خذو بحظّكم...).

هذا التقسيم الذي جاءت عليه هذه المقاطع لم يكن عبثًا، أراد رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام أن يُنبهنا إلى الأداء اللغوي في هذا النَّص، فنرى أنَّ كل مقطع من هذه المقاطع الثلاثة يُشكِّل بداية، وقد ابتدأه بفعل أمر (فاحذروا، فاتّقوا، خذوا)، والنبي ρ قائد المسلمين ومتلقِّي الوحي فهو سلطة عليا في الدولة الفتيّة الناشئة الجديدة، وطريقة الخطاب في هذه الحالة من قائد إلى أتباعه، من سلطة عليا إلى سلطة دُنيا، ولذلك جاء لأسلوب اللغوي معتمدًا على صيغة فعل الأمر التي لم نجدها في المقدمة، بل تلوَّن الأسلوب وفق مقتضيات المعنى.

إنَّ السمة الغالبة على العبارات هي الطول لأنَّ الموقف فيه توصيف وشرح. ولأنَّ المنظومة المعرفية والإيمانية جديدة على المجتمع وعموم الناس آنذاك، والجديد دائمًا يبدو جميلًا لأنَّه غير مطروق سابقًا؛ لذا استُعمل أسلوب التعليم، وهو يتطلب نمطًا من الكلام يعتمد على الترادف ويتطلب الازدواج. فالسمة العامة للمضمون هي تعليم موجّه من سلطة عُليا إلى سلطة دُنيا فكان المرتسم الأسلوبي لهذا التعليم أنَّ أنماط الكلام في أسلوب التعليم قائمة على العبارات الطويلة، واستخدام الترادف، وتعريف الأشياء بأضدادها. أضف إلى ذلك ما نراه من تنوّع في مسألة التراود بين أزمنة الأفعال من جهة، وغياب الجملة الفعلية وحضور الجملة الاسمية في بعض المواضع والعكس صحيح. وبنظرة تقنية إلى البناء اللغوي للعبارات نجد أنَّ هناك تناهضًا بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية، أي بين تحوُّل أزمنة الفعل بين المضارع والماضي، وهذا التناهض اقتضته طبيعة المعاني الواردة، فعندما كان الحديث يجري عمّا يتعلق بثابت وراسخ يحتاج إلى ثبوت ورسوخ كانت تعلو الجملة الاسمية، وتظهر واضحة جليّة، وعندما كان الأمر يسعى إلى توضيح في تحوُّل الزمن والنتائج

[33] سورة النَّجم، 3ـ4.

المتأتية من تحوُّله كانت الجملة الفعلية تتناوب بين الماضي والحاضر. ونرى في المضمون أيضًا غَلَبَة كبيرة لورود آيات القرآن الكريم، سواء أكانت مجتزأة أو كاملة؛ والغاية من ذلك هو تأكيد الأفكار وتثبيتها في عقول المتلقين. ونرى حضورًا مكثّفًا للجملة الشرطية أيضًا، فالأسلوب التعليمي له مقتضيات في الأداء اللغوي، ومن سماته أن يعتمد أسلوب الشرط لأنَّ العلم يقوم على منفعة وجزاء، والمنفعة لا تتأتي بدون فعل يسبقها.

أمّا عن **العاطفة** السائدة في الخطبة، وعن مدى خدمتها لمعاني النَّص وأسلوبه في آنٍ واحد، فنلحظ أنّها كانت تروح مرَّة إلى الترغيب ومرَّة إلى الترهيب؛ الترهيب كقوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (من يعصمها فقد غوى وفرَّط وضلّ ضلالًا بعيدًا)، والترغيب كقوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (من يُطع الله ورسوله فقد رشد). كما أنَّها كانت عاطفة هادئة لأنَّ الموقف تعليمي يحتاج إلى مثل هذا الهدوء والتأنّي، تناغمًا مع هدوء الأسلوب اللغوي وهدوء المعاني ورقّتها.

اللمحات البيانية والبديعية في نَصِّ الخطبة

إنّ أول ما يلفت النّظر في عبارات المقدّمة هو تأكيد المعنى بتكثيف المرادفات كقوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (بالهدى والنور)، وقوله: (دنو من الساعة، وقرب من الأجل)، وقوله: (غوى وفرّط وضلّ)، أو الإتيان بالمعنى نفسه بصيغته المباشرة والصيغة النافية لضده كقوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (وأومن به ولا أكفره)، وقوله: (وقلة من العلم وضلالة من الناس)، وكلُّ ذلك إمعانًا في تأكيد المعاني وتثبيتها في قلوب وأذهان المتلقين، وقد خُتمت المقدمة باستخدام المفعول المطلق لتأكيد الضلالة الناتجة عن الخروج عن هَدْيِ الإسلام وصراطه القويم، إذ قال: (وضلّ ضلالًا بعيدًا)، مؤكدًا بالفعل المطلق الموصوف لإلصاق صفة البُعدِ بالضَّلال إلصاقًا لا شُبهة فيه.

وفي عَرض الخطبة تُطالع المتلقي جمالية محاورة الفكر وحسن التعليل، فكلُّ فعل أَمرٍ مُوجّه منه عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام مشفوع بشرح وتعليل لا يترك لنفس المرء مجالًا للشك والحيرة في غايته والهدف منه، كقوله: (أوصيكم بتقوى الله فهو خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ)، وقوله: (فاحذروا ما حذركم الله من نفسه،... إنَّ تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربّه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة)، وكذلك قوله: (فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله وفي السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفّر عنه سيئاته).

وانظر إلى توشية الخطبة بالاقتباس من آيات الذّكر الحكيم، والاقتباس هو تضمين الكلام شيئًا من القرآن[34]، فذلك أَدْعى لتصديق المعنى والتسليم له والنهوض للعمل به، وقد عمد عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام إلى تبسيط المعاني وذكرها بصيغ متعددة لتوائم مختلف القدرات الفكرية والعقلية للمتلقين، ثم أردفها بآية تلمّ شملها بأبلغ ما يمكن للمرء أن يسمعه ويقرّ في صدره؛ كقوله: (ويحذّركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك، فإنه يقول عز وجل:

[34] رامي الخلف العبد الله وآخرون، مفتاح البلاغة (إسطنبول: دار سنابل، 2018م)، 23.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[35]). ناهيك من الاتّكاء على الطّباق لتجلية المعاني وتوضيحها، كقوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (فاتّقوا الله في عاجل أمركم وآجله وفي السّرّ والعلانية)، وقوله: (ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين)، ومثله قوله: (فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه ...، هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين ليهلك من هلك عن بيّنةٍ ويحيا من حيّ عن بيّنة). وانظر إلى الترادف في عرض الخطبة لتوسيع المعنى وجعله قريب المأخذ؛ كقوله: (وَجَل ومخافة)، وقوله موازنًا بين الجملتين: (والذي صدق قوله وأنجز وعده).

وانظر إلى الإطناب بغرض التنبيه في قوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم)، إذ لم يكتف بكلمة الموت ودلالتها، بل وسّع المعنى لتفصيل ما بعد الموت حيث لن ينفع المرء إلا ما قدّمه من عمل. وكذلك في قوله: (والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك)، فقد استند إلى الأفعال الماضية للإيغال بتحقق المعنى فالله سبحانه وتعالى منجز وعده ولا خُلْف لذلك. ونلمح إرصادًا للمعاني في قوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: (... ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، يملك من الناس ولا يملكون منه)، إذ تُنبئُ الألفاظ بتكرارها في الجمل بما هو قادم من معنى معاكس، وكأنّ الجمل تلتف حول نفسها مؤكدة معانيها لتثبت في فؤاد من سمع ووعى. ولا أجد لوصف خطبته عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام خيرًا من وصف أبي حيان التوحيدي لأحسن الكلام؛ إذ قال: "أحسن الكلام ما رقّ لفظه ولَطُف معناه وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم"[36].

الخاتمة

أنهض الإسلام الفكر والعقل والإنسان، وخلَق نمطًا جديدًا من التفكير أدَّى إلى تكافل اجتماعي وتعاون ما شهدناه في عصور سابقة عند العرب، وكان لهذا النهوض بمجامعه تأثير في اللُّغَة والأدب، إذ التقت لهجات العرب جميعها بفضل الإسلام والقرآن الكريم العرب في الفُصحى التي نعرفها اليوم على امتداد التاريخ والزمن وتطاوله، فقد جاء القرآن الكريم بلغة قريش، ولغة قريش كانت قبيل الإسلام بقليل قد فرضت سيطرتها الأدبية على الحياة الفكرية والثقافية في الجزيرة العربيَّة، وكان العرب يقيمون أسواقًا أدبية بجوار مكّة كسوق عكاظ، وبذا سادت لغة قريش سيادة أدبية على غيرها، وتوحّدت اللهجات والتقت فيها، ووحدة اللُّغَة تعني بالضرورة وحدة التفكير والآمال والآلام إلى حدٍّ كبير.

وبعد دراسة نص خطبة رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام في أول جمعة في المدينة المنوّرة يمكننا القول إنّه سَنَّ للوُعاظِ والخلفاء الراشدين من بعده نهجًا واضحًا لنصوص الخطبة التي ينبغي أن تُوجّه إلى عموم النّاس، ابتداء من اختيار الموضوع وصلته الحثيثة بالواقع والمجتمع وأهميته إذا ما طُبّق

[35] سورة ق، 29.

[36] التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، 256.

بين الناس وآثاره الإيجابية عليهم وعلى أيامهم، مرورًا بالتقسيم الموضوعي لأفكار الخطبة ومعانيها واتّساقها معًا في وحدة موضوعية تلفّ أواصر النص من أول كلمة فيه إلى آخر كلمة، وكأن كلّ كلمة تستدعي التي بعدها برابط منطقي لا انفكاك له، وقد ساعد على ذلك أن وحدة الموضوع في النثر أظهر وأوضحُ، وبعيدة عن التكلّف. ولحظنا في أسلوب الخطبة أنّه اعتمد على تكثيف ألوان البديع بدلًا من التشبيه والكنايات، وابتعد عن التورية؛ وذلك لأن مضمون الخطبة مهمٌّ للنّاس وروابطهم ولا بدّ من الكشف عنه وعن حيثياته بوضوح لا مجال لترك الأمر لفهم المتلقين وتأويلاتهم، والتشابيه عامة والكنايات تحرك أذهان المتلقين لكن قد تشتتها وتبعدها عن أصل المراد من نص الخطبة، لذا تزين النص بفنون من البديع كالطباق والترادف، وذلك بهدف تأكيد المعاني وترسيخ الأفكار لدى المتلقّين، فإذا ما رسخت انطلقوا نحو العمل بها وتطبيقها بما يخدم مصالحهم المعاشية ويدعم بنيان الدولة الإسلامية الناشئة حديثًا، ولذلك رأينا أن رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام عمد إلى استخدام لغة وسطى مهتديًا بقبس من القرآن الكريم، ووشّى نص الخطبة بآيات من الذكر الحكيم لتقويتها ودعمها وتأكيد مضمومها بوحي القرآن الكريم.

المَصادِر والمَراجِع

آبادي، الفيروز (817هـ). القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ= 2005م.

التوحيدي، أبو حيان (400هـ). الإمتاع والمؤانسة. بيروت: المكتبة العصرية، 1424هـ.

حسين، طه. من حديث الشعر والنثر. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.

الخلف العبد الله، رامي، وآخرون. مفتاح البلاغة. إسطنبول: دار سنابل، 2018م.

الزمخشري (538هـ). أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود. بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ= 1998م.

ضيف، شوقي. الفنُّ ومذاهبه في النَّثرِ العربي. مصر: دار المعارف، د.ت.

الصالح، ساجد وآخرون. دراسات في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث. أنقرة: Sonçağ، 2022م.

صفوت، أحمد زكي. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة. بيروت: المكتبة العلمية، د. ت.

الطبري، أبو جعفر (310هـ). تاريخ الطبري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر: دار المعارف، د. ت.

الفاخوري، حنا. الجامع في تاريخ الأدب العربي. بيروت: دار الجيل، 1986م.

قدوم، محمود. نحو النص ذي الجملة الواحدة. الرياض: مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015م.

القلقشندي، أبو العباس أحمد. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1922م.

المسدي، عبد السلام. قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون. الكويت: دار سعاد الصباح، 1993م.

ابنُ هِشام (761هـ). أَوضَحُ المَسالِكِ إلى أَلفيَّةِ ابنِ مالك. تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي. سوريا: دار

الفكر للطباعة والنشر، د.ت.

Kaynakça

Âbâdî, Feyrûz. el-Kâmûsu'l-Muhîţ. Beyrut: Müessesetü'r-Risâle li't-Tıbâ'ati ve'n-Neşri ve't-Tevzî', 2005.

Dayf, Şevkî. el-Fennü ve Mezâhibühû fi'n-Nesri'l-Arabî. Mısır: Dâru'l-Meârif, ty.

el-Fâhûrî, Hannâ. el-Cami' fî Târîhi'l-Edebi'l-'Arabî. Beyrut: Dâru'l-Cîl, 1986.

Hüseyin, Tâhâ. Min Hadîsi'ş-Şi'ri ve'n-Nesr. Kahire: Müessesetü Hindâvî li't-Ta'lîmi ve's-Sekâfe, 2012.

İbn Hişâm, Evdahu'l-Mesâliki ilâ Elfiyeti İbn Mâlik, tahkik: Yusuf Şeyh Muhammed el-Bukâ'î. Suriye: Dâru'l-Fikr, ty.

Kaddum, Mahmud. Nahvu'n-Nassî zi'l-Cümleti'l-Vâhide. Riyad: Arapçaya Hizmet Uluslararası Kral Abdullah Bin Abdülaziz Merkezi, 2015.

Al-Khalaf Alabdulla, Rami vd. Miftahu'l Belağa. Istanbul: Senabel, 2018.

Al-Khllf AlSalh, Sacid vd. Dirâsât fi'ş-Şi'ri'l-'Arabî mine'l-'Asri'l-Câhilî hatte'l-'Asri'l-Hadîs. Ankara: Sonçağ Akademi, 2022.

Kalkaşendî, Ebu'l-'Abbâs Ahmed. Subhu'l-A'şâ fî Sına'ati'l-İnşâ. Kahire: Dâru'l-Kütübi'l-Mısriyye, 1922.

el-Meseddî, Abdüsselâm. Kırâât me'a'ş-Şâbbî ve'l-Mütenebbî ve'l-Câhız ve İbn Haldûn. Kuveyt: Dâru Suâd es-Sabâh, 1993.

Safvet, Ahmed Zekî. Cemheretu Hutabi'l-'Arab fî 'Usûri'l-'Arabiyyeti'z-Zâhira. Beyrut: el-Mektebetü'l-'İlmiyye, ty.

et-Taberî, Ebû Ca'fer. Târihu't-Taberî. thk. Muhammed Ebu'l-Fadl İbrâhîm. Mısır: Dâru'l-Ma'ârif, ty.

et-Tevhîdî, Ebû Hayyân. el-İmtâ' ve'l-Muânese. Beyrut: el-Mektebetü'l-'Asriyye.

ez-Zemahşerî. Esâsu'l-Belâğa. thk. Muhammed Bâsil Uyûnu's-sûd. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-'İlmiyye, 1998.